

شفاء الصدور بذكر نزول فرج الله عند اشتداد الأمور

إن الحمد لله نحمده و نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧٠] يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١] أما بعد:.

فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس :

يقول الله تعالى في كتابه الكريم ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۚ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]

وقال سبحانه ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ [يونس: ٥٧]
أيها الناس: .

قد بشر الله تعالى عباده المؤمنين بأن هذا الكتاب فيه شفاء للقلوب مما يعترىها ويصيبها من الأدوية والأسقام ومن الهموم والغموم ، وهو كذلك شفاء للأمراض العضوية البدنية ولكن قل من يوفق لذلك ، قال الإمام المناوي رَحِمَهُ اللهُ تعالى : فهو شفاء للأدواء القلبية والبدنية لكن لا يحسن التداوي به إلا الموفقون هـ.١. (١)

ومن الأشفية العظيمة التي ذكرها الله تعالى في هذا الكتاب المبارك ألا وهو شفاء القلوب من الهموم والغموم ، ودوائها من قنوطها ويأسها عند حلول الفتن والبلايا والمحن والرزايا فإن ذلك لعمر الله أعظم من الفتن ذاتها أعني اليأس والقنوط وشدة الهموم والغموم وتراكمها على القلب فوقعها عليها شديد ولكن من رحمة ربنا سبحانه أنه عند اشتداد الكروب وضيق الحال وانغلاق الأمور حينئذ يتنزل الفرج من الله تعالى .

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١٠﴾ [يوسف: ١١٠]

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تعالى : يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى في أحوج الأوقات إلى ذلك، كما في قوله تعالى ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ﴿٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤]

وفي قوله: ﴿كَذِبُوا﴾ قراءتان ، إحداهما بالتشديد: "قد كُذِّبُوا" ، وكذلك

كانت عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تقرأها... والقراءة الثانية بالتخفيف. ١.٥هـ (١)

قال شيخنا يحيى الحجوري حفظه الله تعالى : وكلا القراءتين صحيحة فعلى التشديد أن استيئاس الرسل كان بإيمان قومهم لا بعدم نصر الله لهم ، وبالفتح أن اليأس حصل لقوم الرسل وظنوا أن الرسل قد كذبوا ، وضاق الحال جاء نصر الله تعالى لرسله وأنبيائه. ١.٥هـ (٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم، فإنهم لا بد أن يتلوا بما هو أكثر من ذلك ، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك ، ويعلمون أنه قد ابتلي به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلى خير، فليتيقن المرتاب ، ويتوب المذنب ويقوي إيمان المؤمنين فيها يصح الإعتساء بالأنبياء كما في قوله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٣١)

[الأحزاب: ٢١]. ١.٥هـ (٣)

وقال سبحانه وتعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِن نَّصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٣١٤) [البقرة: ٢١٤] قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى : أي: يستفتحون على أعدائهم، ويدعون بقرُبِ الفرج والمخرج، عند ضيق الحال والشدة. قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِن نَّصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٣١٤) كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ [الشَّح: ٦]

(١) . عند تفسيره لسورة [يوسف: ١١٠]

(٢) . من درس تفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ

(٣) . «مجموع الفتاوى» (١٥ / ١٧٨)

وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤) وفي حديث أبي رزين: "عجب ربك من قنوط عباده، وقرب غيثة فينظر إليهم قنطين، فيظل يضحك، يعلم أن فرجهم قريب" الحديث ١.هـ (١)

قلت والحيث صححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في السلسلة الصحيحة ولفظه "ضحك ربنا عز وجل من قنوط عباده، وقرب غيثره، فقال أبو رزين: أو يضحك الرب عز وجل؟ قال: نعم. فقال: لن نعدم من رب يضحك خيرا" أخرجه الطيالسي وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند. (٢)

قال الإمام السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى يَضْحَكُ مِنْ أَنَّ الْعَبْدَ يَصِيرُ مَأْيُوسًا مِنَ الْخَيْرِ بِأَدْنَى شَرٍّ وَقَعَ عَلَيْهِ مَعَ قُرْبِ تَغْيِيرِهِ تَعَالَى الْحَالَ مِنْ شَرٍّ إِلَى خَيْرٍ وَمِنْ مَرَضٍ إِلَى عَافِيَةٍ وَمِنْ بَلَاءٍ وَمِحْنَةٍ إِلَى سُرُورٍ وَفَرَحَةٍ لَكِنَّ الضَّحْكَ عَلَى هَذَا لَا يُمَكِّنُ تَفْسِيرَهُ بِالرَّضَا، وَقَوْلُهُ (لَنْ نَعْدَمَ) ... يُرِيدَانِ الرَّبَّ الَّذِي مِنْ صِفَاتِهِ الضَّحْكَ لَا نَفْقِدُ خَيْرَهُ بَلْ كُلَّمَا احْتَجْنَا إِلَى خَيْرٍ وَجَدْنَاهُ فَإِنَّا إِذَا أَظْهَرْنَا الْفَاقَةَ لَدَيْهِ يَضْحَكُ فَيُعْطِي ١.هـ. (٣)

فتأمل عظيم فرج الله تعالى لعباده وتنفيسه عنهم عند اشتداد البلاء والفتن، بل تأمل إلى قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ حِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ

(١). عند تفسيره لسورة [البقرة: ٢١٤]

(٢). صحيح. أحمد برقم [١٦٢٠١] السلسلة الصحيحة برقم [٢٨١٠]

(٣). «حاشية السندي على سنن ابن ماجه» (١ / ٧٨)

عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ [الروم: ٥٠]

فتأمل إلى قوله سبحانه ﴿﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ : أي يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم لاحتباس المطر عنهم. ١. هـ^(١)
وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : فيئسوا قبل نزوله يائسين : يأساً لعدمه مرئياً، ويأساً لتأخره عن وقته. ١. هـ^(٢)

وقال سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ [الشورى: ٢٨]

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه. ١. هـ^(٣)

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ : قال قتاده : ذكر أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، قحط المطر وقل الغيث وقنط الناس ، فقال : مطرتم إن شاء الله ، ثم قرأ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ ١. هـ^(٤)

(١) . عند تفسيره لسورة [الروم: ٤٩]

(٢) . «مجموع الفتاوى» (١٥ / ٢٧٩)

(٣) . عند تفسيره لسورة [الشورى: ٢٨]

(٤) . . عند تفسيره لسورة [الشورى: ٢٨]

فتأملوا إلى شفاء الله تعالى لصدور عباده وتفريجه عليهم بإنزاله للغيث بعد إبلاسهم وقنوطهم فما أعظم رحمة الله تعالى وفرجه على عباده.

وقال سبحانه وتعالى ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]

فتأمل كيف وعد سبحانه كشف السوء عن عباده وقت اضطرارهم وشدة حاجتهم ودعائهم له سبحانه .

ومن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ووصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ له ثم قال له " واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب " أخرجه الترمذي وصححه الألباني ^(١)

فقرن عليه الصلاة والسلام الفرج مع الكرب ، ولما حُصِرَ أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب إليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول : مهما ينزل بامرئ شدةٌ يجعل الله بعدها فرجاً ، وإنه لن يغلب عسرٌ يسرين . رواه البيهقي ^(٢)

فيا أيها الناس إياكم والقنوط من قرب فرج الله لعباده حين انغلاق الأمور وإيصاد الأبواب فو الله ما اشتدت الكربات وادهمت الخطوب وعظمت البلايا إلا وكان عند ذلك فرج الله ورحمته وغوثه وفرجه جل وعلا .

قال الإمام ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ : ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر : أنَّ الكربَ إذا اشتدَّ وعَظُمَ وتناهى ، وحصل للعبد الإيأس من كَشْفِهِ من جهة المخلوقين ،

(١) . صحيح . أحمد برقم [٢٨٠٣] السلسلة الصحيحة برقم [٢٣٨٢]

(٢) . البيهقي في شعب الايمان [٩٥٣٧]

وتعلق قلبه بالله وحده ، وهذا هو حقيقة التوكل على الله ، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلبُ بها الحوائجُ ، فإنَّ الله يكفي من توكلَ عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .. قال الفضيل : والله لو يُسْتَمَنَ الخلق حتَّى لا تريد منهم شيئاً ، لأعطاك مولاك كُلَّ ما تريد ١٠٠ هـ (١)

ومن تأمل الكتاب والسنة وجد من ذكر ذلك عن أنبيائه ورسله وأوليائه ما لا يحصى وفي ذلكم من العبر والعظات العظيمة ما فيه تسلية وتعزية لكل مهموم ومغموم قال الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧]

فهذا خليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام حين رأى إبراهيم تلك الرؤيا وهي أمر الله تعالى له أن يذبح ولده ﴿ قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] فتأمل إلى هذا البلاء الشديد وهذا من جملة ما ابتلاه الله تعالى به كما قال سبحانه ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤]

فتأمل إلى حال والد يؤمر بذبح ولده بيده وتأمل حال الولد وهو يُخبر بأمر الله لوالده بذبحه بلاء عظيم والله ، ولكن ما جاء الفرج من الله تعالى حينئذ وإنما جاء حين اشتد البلاء وبلغ ذروته ومنتهاه وذلك حين أُضْجِع الولد للذبح وتبهاً واستسلم كل منهما لذلك فحين ذاك جاءه الفرج عند اشتداد الكرب وشدة البلاء .

قال سبحانه وتعالى ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [١٠٣] وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَابَرَهَيْمُ ﴿ ١٠٤ ﴾ قَدْ صَدَفَتِ الرُّؤْيَا ٣ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ ١٠٥ ﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿ ١٠٦ ﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿ ١٠٧ ﴾ [الصافات : ١٠٧]

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (١٠٣) أي: فلما شهدا وذكر الله تعالى، إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت... ومعنى ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أكبه على وجهه. ١. هـ (١)

وهذا نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام وقع في شدائد وكربات عظيمة من تكذيب قومه له حتى تركهم وخرج من بلده وقومه، واضطراب السفينة بهم حتى أوشكت على الغرق، وقرعهم القرعة من يلقونه في البحر وهي تخرج عليه ومع ذلك لم يأت الفرج حينئذ حتى إذا اشتد عليه الكرب وضاق الحال وبلغت الشدة منتهاها وصار في بطن الحوت وفي تلكم الظلمات والكربات جاءه فرج الله تعالى وزوال شدته وكربته، قال الله تعالى حاكيا عنه ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ [الصافات: ١٤٦]

ونبي الله موسى عليه الصلاة والسلام بلغه تخطيط قومه لقتله وخروجهم في أثره بحدهم وحديدهم حتى بلغ الكرب منتهاه وصار الهلاك محققا فالبهر من أمامهم والعدو من خلفهم وأيقنوا أن لا مهرب لهم من عدوهم ولا مأمن لهم منه حتى قال قومه ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٦١) [الشعراء: ٦١]

جاءه الفرج من الله بعد أن بلغت القلوب الحناجر، وأهلك الله عدوهم وهم ينظرون قال الله سبحانه ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ

رَبِّ سَيِّدِينَ ﴿٦٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٤﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ [الشعراء: ٦٧]

ونبينا عليه الصلاة والسلام بلغ به و بأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الكرب والبلاء من أذية كفار قريش له مبلغا عظيما فقتل من أصحابه من قُتِلَ وعُذِبَ من عُذِبَ وهاجر من هاجر بل وخططوا لقتله أوسجته أو نفية كما قال الله تعالى حاكيا عنهم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]

حتى اضطر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن يفارق بلده وموطنه مكة وهي أحب البقاع إليه.

عن عبد الله بن عدي بن حمراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ واقفا على الحزورة-مكان بمكة- فقال " والله إنك لخير أرض الله وأحب الله إلى الله ولولا أني أُخْرِجْتُ منك ما خرجت " رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني رَحِمَهُمُ اللَّهُ ^(١)

فما توقف البلاء وأذية قومه له عند ذلك بل وبذلوا الجوائز العظيمة لمن يدهم عليه وعلى صاحبه وخرجوا في طلبه سراعا حتى اختبأ منهم في الغار فأتوا ووقفوا على باب الغار وهم يريدون قتله والبطش به حتى لم يكن بينهم وبينه إلا اختلاس نظرة يختلسها أحدهم إلى موضع قدمه فيبصرهما فأخذ أبا بكر الروع وهمس يحدث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما " متفق عليه ^(٢)

(١) . صحيح . أحمد برقم [١٨٧١٥] «صحيح الجامع الصغير وزيادته» [٧٠٨٨] حسن . الصحيح المسند برقم [٧١٠]

(٢) . البخاري برقم [٣٤٥٣] ومسلم برقم [٢٣٨١]

قال الله تعالى حاكياً عنهما ﴿إِلَّا نَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠]

فجاءه الفرج من عند الله تعالى عند ذلك وأيده سبحانه بجنود من عنده وهم الملائكة.

قال الإمام الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي أخطر المواقف في الإسلام ، في غزوة بدر ، حيثما التقى الحق بالباطل وجهاً لوجه ، جاءت قوى الشر في خيلائها وبطرها وأشرها ، وأمامها جند الله في تواضعهم وإيمانهم وضراعتهم إلى الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ١٠] الآيات ١. هـ (١)

فتأملوا كيف جاء فرج الله تعالى وتنفيسه لهم عند ضيق الحال واشتداد الأمور وتعسرها.

أسأل الله أن يجعل لنا ولكم من كل هم فرجا ومن كل غم وضيق مخرجا ومن كل عسر يسرا وأن يصرف عنا ما أهدمنا وما أغمنا والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة على رسوله الأمين وصحابته ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين .
وبعد .:

ومن ذلكم مريم عليها السلام بلغ بها الكرب مبلغا عظيما ، بشرا يدخل عليها في حال خلوتها وهي العفيفة الشريفة الطاهرة عليها السلام وهذا بلاء عظيم وليس هذا فحسب بل وتُبشّر بالحمل وبمولود من غير أب فكيف يكون حالها مع قومها وهي من هي ، العابدة التقية النقية حتى إذا اشتد عليها الكرب وحن وقت وضعها وولادتها وبلغ بها من شدته أنها تمت الموت لشدة ما بها وما حل بها من الكرب والبلاء جاءها الفرّج من الله تعالى قال الله ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦) فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ [مريم: ١٧]

إلى قوله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكِ الْجِذْعَ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ [مريم: ٢٦]

وأم موسى عليها السلام تواردت عليها الكربات والهموم ، هم قتل صغيرها ووليدها وهي تحبه أعظم المحبة ، وهم إلقائه في اليم وهم ذهابه مع الماء واختفاء أثره حتى بلغ بها الكرب أن صار

قلبها كما قال الله تعالى ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ ۖ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾ [القصص: ١٠]

رده الله تعالى إليها وجاء به إليها بل وصارت متفضلة على عدوها أنها ترضعه لهم وهم لا يعلمون أنه ابنها قال الله جلا وعلا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلَيْهِ فِي السَّيْرِ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ ۖ إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧﴾ فَأَلْقَطَهُ ۖ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۖ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ [القصص: ٨] إلى قوله تعالى ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ۖ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [القصص: ١٣]

وما قص الله تعالى علينا من قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وما أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه به من هجرهم بل وأمرهم أن يُسرحوا زوجاتهم ، بلاء عظيم حتى كان الواحد منهم يرد السلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما يدري أرد عليه السلام أم لا ، ويكلم أحدهم قريبه فلا يرد عليه ، بلاء عظيم فلما بلغ شدته وقوته حتى ضاقت على أحدهم نفسه وضاقت عليهم الأرض بما رحبت أذن الله تعالى بالفرج وأنزل توبتهم من فوق سبع سماوات قال سبحانه ﴿وَعَلَىٰ آلِ زَيْنَبَ ۖ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١١٨﴾ [التوبة: ١١٨]

وغير ذلكم من القصص العظيمة التي ذُكرت في الكتاب والسنة من نزول الفرج على عباده سبحانه حال اشتداد الكرب ، وعظمة البلاء وشفاء القلوب من همومها وغمومها ، فله الحمد والمنة وله الفضل والإحسان فثقوا عباد الله بربكم وأحسنوا الظن بمولاكم فإن فرجه قريب ،

فأبشروا عباد الله بفرج الله سبحانه علينا فوعزة ربنا لتفرجن وليذهب ربنا سبحانه وتعالى هذه الشدة والبلاء ولسوف يبدل الله ضيق العباد سعة وشدتهم رخاءً وفقرهم غنى هذا ظننا بالله سبحانه، فلا شدة تلبس ولا رخاء قال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (٢) [الطلاق: ٣]

قال القرطبي رحمه الله: أي لكل شيء من الشدة والرخاء أجلا ينتهي إليه. ا.هـ. (١) وقال سبحانه وتعالى ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَجْبَنَّا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾ [الأنعام: ٦٤] وقال سبحانه وتعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٦]

قال القرطبي رحمه الله: أي إن مع الضيقة والشدة يسرا، أي سعة وغنى. ثم كرر فقال ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٦]. ا.هـ. (٢)

لكن لذلك أسبابا إن عملها العباد كان فرج الله عليهم نازل والتنفيس لهم حاصل من أعظمها حسن الظن به جل وعلا أنه سبحانه سيجعل بعد العسر يسرا وأن الله جاعل لعباده فرجا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ "يقول الله أنا عند ظن عبدي بي" متفق عليه (٣) وعند أحمد وغيره "إن ظن خيرا فله وإن ظن شرا فله" (٤)

(١) . عند تفسيره لسورة [الطلاق: ٣]

(٢) . عند تفسيره لسورة [الشرح: ٦]

(٣) . البخاري برقم [٦٩٧٠] ومسلم برقم [٢٦٧٥]

(٤) . صحيح . أحمد [٩٠٧٦] الجامع الصغير برقم [٧٧٦٤]

فيامعاشر المسلمين أحسنوا الظن بركم فوالله لن يخيب ظنكم فيه .

فيا من تسلط عليه الأعداء ويا من توارد عليه البلاء ويا من أدلهمت عليه الخطوب وأظلمت عليه الدروب أحسن الظن بربك وإياك واليأس والقنوط فإن فرج الله قريب وكلما اشتد الخطب وضاق الحال وعظم الخطب جاء فرج الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

فأسأل الله أن يجعل لنا ولكم من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ومن كل بلاء عافية ، وأن يعجل لنا بفرج من عنده قريب إنه سميع مجيب .

اللَّهُمَّ أرنا ثأرنا فيمن ظلمنا وانتقم لنا ممن آذانا ، اللَّهُمَّ آوي شريدنا ولم شعثنا وآمنا في أوطاننا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبيه وصحبه وسلم تسليما كثيرا .